عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الأولى: مدخل لعلم التصوف
الدرس الرابع: التصوف في عرف علماء الأمة
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

التصوف في عرف علماء الأمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

التصوف والارتقاء بالممارسة الدينية إلى مستوى الذوق والحضور مع الله: عاتب الله تعالى المؤمنين في كتابه العزيز، لِعَدم تمكُّن المعاني الإيمانية مِن قلوبهم؛ نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾؛ قال ابن مسعود كما جاء في صحيح مسلم: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»، فإن عاتب الله تعالى المومنين بَعْدَ أربع سنوات فقط مِن إسلامهم! فما القول بالنسبة للعديد مِنَ الناس اليوم وبعد سنوات طِوالٍ مِن إسلامهم؟.

العديد من النصوص القرآنية والحديثية في ديننا الحنيف تَحدَّثت عن الأذواق والأصول القلبية والإيمانية التي كِدنا أو نكاد نفقدها اليوم

فقهاء الأمّة وحضور التصوف: كان فقهاء الأمة يجمعون بين كمالات الدين، وكانوا يؤدون العبادات العمَلية متحققين بمعانيها، مدركين لأسرارها؛... ونستعرض في جولة سريعة هذا التكامل عند هؤلاء الأعلام:

الإمام مالك: كان، كما في الشفا (289/1): «إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه». وسُئل يوما في ذلك، أيْ عن ذلك، فقال (ترتيب المدارك، 198/1): «لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون... قال: كنت كلما أجد في قلبي قسوة آتي محمد بن المنكدر، فأنظر إليه نظرة فأتعظ بنفسي أياما». في ذلك قال: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».

الإمام أحمد بن حنبل: فقيهُ الحنابلة؛ كان يقول عن الصوفية (غذاء الألباب للسفاريني، 120/1): «لا أعلم قوماً أفضل منهم». وفي طبقات الحنابلة (382/1)، وعند ابن الجوزي في صيد الخاطر (ص33): «ذُكر في مجلس أحمد بن حنبل معروف الكرخي، وهو من أئمة التصوف في القرن الثاني الهجري، فقال بعض من حضره: هو قصير العلم، قال أحمد: أمسك عافاك الله، وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف». وفي طبقات الحنابلة (382/1) أيضا: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «قلت لأبي: هل كان مع معروف شيء من العلم؟ فقال لي: يا بني، كان معه رأس العلم: خشية الله تعالى».

الإمام الشافعي: جاء في (تأييد الحقيقة العلية للسيوطي، ص15) أنه: «صحب الصوفية واستفاد منهم: أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسَك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل» ويذكر الشعراني (كشف الخفاء للعجلوني، 341/1) أن الإمام الشافعي صحب الصوفية عشر سنين، حتى قال: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: تركُ التكلف، وعِشرةُ الخلق بالتلطُّف، والاقتداء بطريق أهل التصوف». وقال الجنيد (البيهقي في مناقب الشافعي، 178/2): «كان الشافعي من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين». وكان الشافعي يسأل الدعاء من العارف بالله إدريس بن يحي الصوفي، ذَكَر ذلك الحافظ أبو نعيم في «الحلية» (135/9)، والحافظ البيهقي في «مناقب الشافعي» (159/2)، والحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (83/10)، وابن أبي حاتم في «آداب الشافعي ومناقبه» (ص63). لذلك فهو يوصي بالجمع بين الفقه والتصوف فيقول شِعراً في ديوانه (ص42-43):

فقيهًا وصوفيًّا فكُن ليسَ واحداً ***** فإني وحقِّ الله إيَّاك أنصَحُ

فذلك قاسٍ لم يذق قلبُه تُقى ***** وهذا جهول، كيف ذو الجهل يصلح

أبو حنيفة: قال صاحب الدر المختار (43/1) بأن أبا حنيفة كان من أئمة طريقة التصوف ومن أرباب الشريعة والحقيقة. وقال ابن عابدين في حاشيته (43/1) متحدثاً عن أبي حنيفة، تعليقاً على كلام صاحب الدر المختار: «هو فارس هذا الميدان، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس، وقد وصفه بذلك عامة السلف».

ابن الجوزي والتصوف: شَهد بذلك حتى الناقد المتتبع لمزالق الصوفية، ابن الجوزي، حيث يُقِرُّ بعدم نجاعة الاكتفاء بالفقه في رِقّة القلوب، ويؤكِّد على الرجوع إلى الصالحين في ذلك؛ فيقول في كتابه: صيد الخاطر، في: «فصل مخالطة الصالحين» (ص165): «رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يُمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين؛ ... وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجةٍ وذوق لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث هِمَّة أحدهم في الحديث العالي وتكثير

الأجزاء. وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب به الخصم. وكيف يَرِقُّ القلب مع هذه الأشياء ؟. وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر في سمته وهديه، لا لاقتباس علمه...». الرجوع إلى الصالحين هو العِلم الذي يُدندن حوله الصوفية الكرام، وهو الذي يهتم برقة القلوب والتحقق بأذواق الإيمان، وهو الوراثة العلمية التي أشار إليها العلامة الطاهر بن عاشور (مقاصد الشريعة، ص30) بوراثة تكميل النفوس.

التصوف عند المحدثين: نجدُ الممارسة الصوفية، والمُتمثلة في التماس الصالحين والأخذ عنهم، عند شيوخ الإمام البخاري الذين روى لهم أحاديث كثيرة في صحيحه، يُرجع في ذلك إلى سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي.

ونسوق كلام الحاكم في مستدركه على الصحيحين (18/3)، حيث قال: «الصوفية هي الطائفة المنتمية إلى أكابر الصحابة قرنا بعد قرن».

ومن المحدثين الحفاظ والمؤرخين الكبار: الإمام الذَّهَبي الذي قال في السير (410/15): «العالِمُ إذا عَرِيَ من التَّصوف فهو فارغ».

التصوف عند الفقهاء الأصوليين: نجد إمامَهم وعميدَهم، الفقيه الأصولي الإمام الشاطبي، الذي قال كلاما كثيرا ومليحا في حق التصوف والصوفية، لكن نُجمل ذلك ونختزله في قوله في الموافقات (174/4): «الصوفية باتفاق أهل السنة هم صفوة الله من الخليقة».

التصوف عند السلفيين المجددين: قال معتمَدُهم ومنظرهم: شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى، وهو الذي تهجم على الغلاة المنحرفين من أدعياء التصوف، لكنه مجد ورفع من شأن الصوفية في الفتاوى (12/11) وفي العديد من رسائله، نُجمل كذلك ونختزله موقفه في قوله: بأن الصوفية: «هُم مِن أكمل صديقي زمانهم».

وكان لتلميذه ابن القيم كتابين متخصصين في التصوف: مدارج السالكين وطريق الهجرتين، نجمل كلامه عن الصوفية في قوله: «وأما السابقون المقربون، فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالتهم وعدم الاتصاف بها، بل ما شممنا لها رائحة. ولكن محبة القوم (أي الصوفية) تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم». (146/1)

وذهب العلامة السَّلفي المغربي علال الفاسي إلى أن «التصوف يمثل ذلك التوق الهائل للاتصال بالملإ الأعلى، وأنه منهجٌ من مناهج الإسلام، وسُلّمٌ للنجاة، معروفٌ ومسلوكٌ من النبي عليه السلام وصحبه». (التصوف الإسلامي، ص8-9)

التصوف عند العلماء: يقرر حجة الإسلام الإمام الغزالي عن تجربةٍ شخصية أنَّ طريق الصوفية هو الذي يقود إلى اقتفاء أثر رسول الله ﷺ؛ فيقول (المنقذ من الضلال، ص 178): «علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

الأمثلة في هذا الباب كثيرة، مِمّا يدلُّ أنّ التصوف مُتجدِّر في الأمة.